الحفريات فى العراق

للأستاذ محمد يحيى الهاشمى

مدرس اللغة العربية بجامعة برلين

شوقى العظيم لمعرفة المعادن المنتشرة فى البلاد العربية جميعاً من الخليج الفارسى إلى جبال الأطلس ساقنى للاطلاع على كثير من البحاثين الغربيين الذين أموا بلادنا لدراستها من كل الجهات؛ فبعد أن درس الأوربيون أرضهم وعلموا ما فوقها وما تحتها شبراً شبراً طافوا آفاق العالم ليدرسوا الأقطار النائية عنهم، لأنهم يودون أن يعرفوا الحياة كما هى؛ ومعرفة الحياة كما هى اضطرتهم أن يفحصوا كل نقطة من النقاط كى يبتعدوا عن الحكم المستعجل. هكذا تواضعوا المعرفة وجمعوا قواهم وسعوا سعيهم نحو هدفهم فتقدموا وهكذا تقاعسنا ونمنا فتأخرنا. لقد اكتفينا بالقليل، وإذا علم أحد منا شيئاً يسيراً ظن نفسه أنه أدرك علوم الأولين والآخرين. تعودنا ألا نشجع بعضنا بعضاً على العمل فنثبط همتنا ونعيش بذلك فى دياجير الظلمات لا نفتح أعيننا لنرى ما فى الكون. أو يطربنا أن نرى العلماء الأوروبيين من ألمان وإنكليز وإفرنسيين وهولنديين يشتغلون فى استنباط علومنا ونحن لا نفكر فى هذا الموضوع التفكير اللائق.

ولو تزجرون الطير يوما علمتمو ... لما تحته من عثرة وشتات

هل علمت أيها الأخ أن الأوربى يدرك مدنيتنا وقيمتها العلمية والتاريخية أكثر منا؟ ألا نعتبر بالبحاثين من شتى المدن؟ ربما يقال إنا قوم فقراء وليس عندنا من المال ما يقوم بالمطلوب للبحث والتنقيب والاشتغال العلمى والنهوض بأمتنا الكريمة.

نعم إنه لكذلك ولكن التكاتف والعمل المشترك يزيل كل عثرة؛ أما الإهمال فيثبط الهمة ويكون سبباً لأن يعيش بعض أبناء وطننا المخلصين مبعثرين فى العالم لا وطن يأويهم ولا شعب يأخذ بيدهم، ينظرون إلى الشرق بحنين وألم وإلى الغرب بإعجاب وتقدير.

وإذا سردت هنا شيئاً طفيفاً عن بعض التنقيبات فى العراق، تلك الأرض التى أشغلت علماء الأوروبيين عصوراً عديدة، لعلمنا ماهى الهمة العظيمة التى يبذلها الأوروبى متكاتف اليد لإحصاء كل شىء والاطلاع على كل حقيقة.

العراق: أرض الحضارات العريقة الأصل، موطن آشور وبابل، مشيد إيوان كسرى، مقر الخلفاء العباسيين، جذبت قلوب كثيرين من البحاث الكبار الذين وقفوا جل حياتهم

لكشف الغطاء عن مدنية من تلك المدنيات ، حيث فى هذه الأرض شتى الوثائق التاريخية القيمة المغمورة تحت التراب التى تجيبنا عن أسئلة عديدة وتحل لنا جم الألغاز .

والذى يجلب دقة نظر الأوروبيين اليوم ، كيفية ولوج المدنية الإسلامية فى فارس والعلاقة ما بين الساسانيين وهم الفرس قبل الاسلام، وأوائل المدنية الاسلامية فى العراق؛ فهناك كانت حروب طاحنة بين الفرس والروم ، وبين العرب والروم ، وكذلك بين العرب والفرس .

بلاد ما بين النهرين كانت الطريق الوحيدة إلى الهند فى العالم القديم الموصلة بين الشرق والغرب ، والتى يجرى فيها النهران العظيمان: الدجلة والفرات العاملان على خصب أراضيها : فلا غرو أن تكون تلك الأرض مطمح أنظار الفاتحين منذ ذلك الزمن البعيد الذى دون لنا التاريخ عنه أخباراً ضئيلة .

ولقد تجول كثيرون من الأوروبيين للبحث والتنقيب فى تلك الأصقاع : فمنهم من كان يبحث عن المعادن والزيوت ، ومنهم من كان يسعى لنبش تراث الأقدمين ليقرأ أخبارهم ، ويرمى نظرة عميقة فى طراز حياتهم الماضية. ولقد أرانى الدكتور شميد المعاون فى متحف قيصر ويلهلم فى برلين فى الشعبة الاسلامية ، آثار مدينة سامرة « سر من رأى » ، تلك المدينة التى بناها الخلفاء خارج بغداد على ضفة نهر الدجلة ليعيشوا قسما من حياتهم بعيدين عن ضوضاء المدنية وفى سكون الطبيعة الهادىء . ولو رأى الانسان تلك الآثار من مدينة (سر من رأى) فى المتحف لكاد يظن أنها غرف حديثة ليست منبوشة من الآثار القديمة؛ لأن الاعتناء والدقة والاهتمام بالشىء يجعله قريباً من كيانه الأول .

اشتغل البحاث الألمان فى جمع آثار هذه المدينة قبل الحرب العامة، وقد جمعوا ماقدروا عليه ؛ أما اليوم فيشتغلون فى العراق فى تلك المدينة المهمة جنوبى بغداد ، التى جمعت آثار ثلاث مدنيات : « مدنية العرب والفرس والروم » ؛ ألا وهى مدينة كتزيفون التى يسميها العرب « المدينة العتيقة » .

ساح الأستاذ ساره Sarre المدير السابق للشعبة الاسلامية لمتحف برلين عام ١٩٢٠ فى أرض العراق، وأدرك أن كثيراً من التسميات الدارجة على الأفواه لاتطابق الواقع ؛ مثل القصر الذى يزعم أنه إيوان كسرى هو ليس بإيوان كسرى بل هو قصر رومى، واستدل على صحة قوله من طراز البناء والمخطوطات الموجودة فيه ، وقد رأى ضرورة القيام بالحفريات ونفذت خطته عام ١٩٢٨ بمساعدة الجمعية الألمانية لدراسة الشرق وجمعية إسعاف العلوم .

كنزيفون

عن العصر الذهبي لكنزيفون يخبرنا كثير من كتاب العرب والمؤرخين والجغرافيين المبعثرة مخطوطاتهم فى شتى خزائن مكتبات أوروبا ، ولكن لم تنظم تلك الوثائق التاريخية حتى هذا اليوم ، وتصير سهلة الاستعمال. وهذا الباب لايزال مفتوحاً لمن أراد أن يبحث، وقد استخرج من تحت الأرض كثير من آثار البناء الفارسى لخزانات القصر المعروف بـ (ثق - كسرى) من كنزيفون ، واستخرج أيضاً بعض الآثار من أوائل العهد الاسلامى فى مدينة « سلمان - ياك » أى سلمان التقى .

والمدينة الثانية المهمة هى مدينة زليخة التى كانت مقابلة لكنزيفون على ضفة نهر الدجلة، ولكن النهر لايمر اليوم من مدينة زليخة ، بل بين أطلال كنزيفون ، ويشاهد جليا آثار ضفة النهر القديمة ، وهكذا غير النهر مجراه على ممر الدهور على ما كان عليه فى السابق .

وتلك الآثار التى جمعت موجود قسم منها فى متحف بغداد ، والقسم الآخر فى الشعبة الاسلامية لمتحف برلين . وقد سنت اليوم الحكومة العراقية قانوناً تمنع فيه إخراج الآثار مالم يكن لها مثيل فى البلاد .

ومنذ عامين تشكلت لجنة ألمانية أمريكية للبحث عن الآثار فى العراق، وقد كان يرأس اللجنة الأستاذ كونيل Kuenel مدير الشعبة الاسلامية لمتحف برلين الحالى ، وذهب معه المهندس المعمارى (واخسموت wachsmuth) المعمارى الشهير فى مدينة ماربورغ فى ألمانيا ؛ ومن الأمريكان ذهب الأستاذ يوسف اوبتون Joseph opton المعاون فى الشعبة الاسلامية فى متحف متروبوليتان Metropolitan فى نيويورك . وقد وجدت اللجنة مساعدة كبيرة من الحكومة العراقية ، وتمكنت من اكتشاف آثار جمة فى فن البناء والزينات المنزلية القديمة ، ولايزال المدققون والمتخصصون فى الآثار وتاريخ الفن الجميل يشتغلون فى كشف ألغاز تلك الآثار وفهم طراز البناء الاسلامى القديم .

فعسى أن نعتبر بالسعى الحثيث الذى يبذله غيرنا فى معرفة وطننا ، فنبذل كل جهدنا لمعرفة حالنا ، ظاهرها وباطنها قديمها وحديثها، ولا نكون أقل من الأوربيين فى معرفة أنفسنا وتاريخنا ومدنيتنا، ورب مدرك ما أضعنا فنجمع قوانا لنعيد مجداً مضى ومدنية اندثرت، وما ذلك على شبابنا الناهض الفتى بعزيز .

محمد يحيى الهاشمى
مدرس اللغة العربية فى جامعة برلين